

ما ينفق فيها فان كان براً أتوه ببرهم وان كان فاجراً أتوه بفجورهم: فاطرق طويلاً
فاوماً إلى الربيع أن اخرج فخرجت وما عدت إليه.

رحلة إلى البصرة وجوارها

١

في اليوم التاسع والعشرين من شهر المحرم لهذه السنة امتطينا ظهر إحدى البواخر
العثمانية فأقلعت بنا من بغداد في اليوم الثاني قاصدة البصرة الفيحاء، وهذه الباخرة
حسنة جداً توفرت فيها أسباب الراحة للركاب والسياح وهي بنظامها وترتيبها أشبه
بنظام البواخر الكبرى التي تخر في أمار الغرب وبحاره. لما جعلنا نظري مدحت باشا
وهو في رمسه على ما أتاه من ضروب الإصلاح واحداث من المشاريع العمرانية في
هذا القطر ومن جملة إنشاءه هذه الشركة التي أحدثت ذلك الانقلاب الاقتصادي
والتجاري في مرافق القطر العراقي فقربت المسافة بين بغداد والبصرة بل بين أوروبا
والعراق. وقد أزيلت بواسطتها كل المشاكل والعوارض التي تقف سداً حائلاً في نمو
التجارة الوطنية وانتشارها. وكانت وسائل النقل والمواصلات بين الزوراء والفيحاء
في حكم العدم قبل أيام ذلك الوزير وجل ما كان هو السفن الشراعية تقطع المسافة ما
بين تينك الحاضرتين في ثلاثين يوماً أو أكثر تبعاً لحالة الجو وهبوب الهواء في حين تقطع
السفن التجارية ذلك الطريق وطوله نحو ٥٢٠ ميلاً في ثلاثة أيام إذا كان الموسم في
الربيع والشتاء وخمسة أيام إذا كان صيفاً أو خريفاً دع عنك الراحة التي يجدها المسافر
في ذهابه وإيابه هذا عدا ما في ذلك من الأمن على الأرواح والأموال.

جلسنا ومن كان معنا من ركاب الدرجة الأولى فوق سطح الباخرة لستمع الأنظار بما
كان عن اليمين والشمال من المشاهد الطبيعية التي تأخذ بمجامع القلوب وتسحر
الألباب، وكانت باخرتنا تسير الهويناً بالرغم من أن شحنتها نحو ٢٥٠ طناً وإنما

سريعة الجري إذ تقطع في الساعة ١٢ ميلاً بحرياً. ومنشأ ذلك ضعف جريان دجلة، ولا تدري هل هذا الضعف الذي انحل جسم الأمة وأهلك قواها قد سرى إلى أشجارها وأثمارها حتى كاد يقف دجلة عن السير، أو أن دجلة أحسن بعجز الأمة وحكومة البلاد عن الإصلاح وإعمار الأراضي الطيبة وتوزيع مياهها فيها على ما يتطلبه الفن الحديث فأصابه فتور وكان منه ما كان أو أنه غضب فنجل بمائة النмир - ويحى له البخل - على قوم لا يستحقون هذه النعم التي توفرت لهم أو أنه ادخر ما عنده إلى الوقت الذي يدب فيه ديب الحياة في جسم الأمة العربية فتنشط من عقالها إلى شق الأثمار وحفر الجداول وتقسيم مياه دجلة عليها؟؟ لست ادري، وغاية ما في الباب أن دجلة ضعيفة جربته ويعلمون لذلك أن وقت الفيض لم يحن بعد لأنه يتدئ من آذار وينتهي بانتهاء شهر أيار على الحساب الغربي إلا أن هناك مؤثرات أوجبت هذه البطءة في سير دجلة وهو ذهاب المياه في الأهوار ضياعاً من جون أن تنتفع منها التربة، وقد صادف في طريقنا ظهور جزر كثيرة في وسط دجلة فكان ربان الباخرة وهو من أبناء يعرب المقتدرين يتقي الأخطار بفطنته ودرايته فسار بها على مقتضى الحكمة والخبرة خشية الارتطام بإحدى الجزر والجنوح إلى الشاطئ وهذا العارض الطبيعي قد يسر لنا مشاهدة ما أمامنا من الرياض والغياض والحقول وقد كنا نسمع عن كذب أنين النواعير وخرير المياه وحفيف الأشجار وتغريد الأطيوار وصغار الخراف وخوار العجول التي هي اوقع في النفوس من أوتار الموسيقى وألذ على القلوب من ضرب البيانو وغناء ربان الجمال. وكان النسيم عليلاً فيهب علينا من جهة الغرب حاملاً بين برديه أريج الأزهار وروائح الإثمار فأنشدنا قول الشاعر:

إن هذا الربيع شيء عجيب ... يضحك الأرض من بكاء السماء

ذهب حيثما ذهبنا ودر ... حيث درنا وفضة في الفضاء

والرسوم ينطق بلسان فصيح بما كان لهذه المواطن من عظيم الشأن ورفيع المقام في
قديم الزمان، ولما لاحت لنا عن كذب بقايا طاق كسرى انوشروان فخر الدولة
الساسانية واطلال إيوانه المشهور سكبت منا العبرات وتصاعدت من أنفاسنا الزفرات
إلى السماء حزناً على ما كانت عليه هذه اليدار من الحضارة وال عمران فتقلبت عليها
الأزمان ونزلها من لا يصلح ولا تصلح له، وأنشدنا قول الشاعر العربي:

امست خلاء وأمسى أهلها ارتحلوا ... اخنى عليها الذي اخنى على لبد

لطاق كسرى هذا شأن خطير في تاريخ العراق القديم وهو من الآثار الجليلة التي تمثل
للاعصر المتأخرة عظمة الفرس وضخامة تمدنهم وعلو كعب دولتهم في الحضارة
والمدينة، وقد أفاض المؤرخون من المتقلمين والمحدثين في وصف هذا الإيوان العظيم
الذي تصدر فيه كسرى العادل ويعتبر مؤرخو العرب أن له ميسماً بتاريخ عرب
المناذرة في الحيرة لا تصالهم بدولة الفرس، ومن كتب عنه ابن الأثير المؤلف المشهور
قال في الكامل: . . . وهو - يعني الإيوان - مبني بالآجر وهو على مرتفع من الأرض
طوله ١٥٠ ذراعاً في عرض مثلها وأمامه ميدان طوله ٨٠ ذراعاً في ٢٥ وقيل سعة
الإيوان من ركنه إلى ركنه ٩٠ ذراعاً . وكان فيه من التماثيل والصور شيء كثير من
جملتها صورة كسرى انوشروان وقصر ملك إنطاكية وهو يحاصرها ويحاربها فلما
فتحت المدائن سنة ١٦ هجرية على يد سعد بن عبادة ترك ما فيه من التماثيل واتخذ
مصلى وصلّى فيه صلوة الفتح ثماني ركعات لا يفصل بينها وقيل أن المسلمين احرقوه
بعد ذلك بقليل

هذا ما قاله ابن الأثير وهو من رجال القرن السابع للهجرة غير أن ما جاء في كلامه
ليس إلا وصف الإيوان على عهد الفتح الإسلامي ولم يشر إلى حالته في عصره وجاء
ذكر هذا الإيوان عرضاً في مقدمة تاريخ بغداد للخطيب البغدادي قال المدائن لكثرة

الفلاح الذي بعدت أرضه عن المدينة، وقد سرنا ما رأيناه من نشاط الفلاح البغدادي واجتهاده في تربية النخيل وأعمار الأراضي الغامرة وحرثها والاستفادة من تربتها وآثار ذلك بادية في حقوله وكرومه وظاهرة في جنائنه ورياضه ولو احكم وسائل السقي واقتفى اثر الفلاح الأوربي في الحرث على الأصول الحديثة وعضدته الحكومة بالمحافظة على زراعة وضرعه وكفلت له السلامة من الغرق لكانت البلاد اليوم في ارفع درجات العمران وفي اوج العلاء والتقدم.

وعلى طول زهاء عشر ساعات امتدت على ضفتي دجلة قصور قوراء توفرت فيها أسباب الرفاهية والنعيم قد شيدها أعيان الوزراء وموسروها على الطراز الأوربي ولم يذخروا واسعاً في إعداد كل أدوات الزينة من الأثاث والرياش الفاخرة مما لا يقل عما في قصور الملوك وعظماء الممولين في البلاد الأخرى وفيها يقطن الأعيان فصلي الربيع والصيف لقتضاء الشهوات والتنعيم بلذيذ العيش الذي هو بعرفهم عبارة عن اللهو والقصف والملبس الجميل والمأكّل الفاخر وأكثر ما شاهدناه من آثار العمران لأغنياء الإسرائيليين والمسيحيين وما بقي وهو شيء قليل بيد المسلمين. ومع هذا فانك تجد الفرق ظاهراً بين المعيشتين فترى النظام والترتيب وحسن الذوق يغلب على قصور غير المسلمين وبعكسه تجد في دور أغنيائنا على أن ما ينفقه المسلم في سبيل انه وراحته يبلغ أضعاف أضعاف ما ينفقه المسيحي والإسرائيلي، وما ذلك إلا من معرفة هؤلاء طرق الاقتصاد وتفنتهم بالإدارة المترلية وعدم إماننا بالمسائل الاقتصادية وإهمالنا أمر العناية والتحقيق في إدارة بيوتنا وتنظيم شؤون اسرنا.

وما اقبلنا على طاق كسرى إلا واستقبلنا فلاة مقفرة قاحلة فكنا نمر الساعة والساعتين فلا تقع الأنظار إلا على خرائب طامسة وإطلال دراسة أكل الدهر عليها وشرب ولكن ما فيها من نفيس الآثار كالتلال والروابي التي انبثت فيها التصاوير

واصلت الباخرة بنا السير وهي تشق عباب دجلة الجميل فما وقعت أنظارنا إلا على ارض ضاحكة مستبشرة قد كستها الطبيعة حلى خضراء تبهج الناظرين وكنا نرى أشجار النخيل الباسقة ممتدة على ضفتي النهر وبينها القصور الشاهقة والمباني السامقة وكانت تحجبها عنها نور الشمس أحياناً لارتفاعها وذهابها صعوداً في الهواء وممرنا بنهر ديالة المشهور في كتب العرب باسم نهر تأمرا ومنبع هذا النهر من غربي اسداباد في ديار العجم عند الدرجة ٣٠ والدقيقة ٤٠ عرضاً شمالياً وطوله ٣٥٠ متراً ومصبه في ساحل دجلة الأيسر على بعد بضعة فراسخ من بغداد وهو يمر بخيسان العراق وتفرع منه بضعة أنهر كنهري الخالص وبلدوزر وغيرهما، وكان لهذا النهر شأن خطير في حضارة القطر العراقي، ويجري فيه من المياه ما يناهز ٣٠٠ متر مكعب في الثانية أيام الفيض و٥٠ متراً مكعباً زمن هبوط المياه بيد إنما لا توجد في كل الشهور ويتبدئ موسم فيضه من شهر تشرين الثاني وينتهي في تموز على الحساب الرومي، وموقف هذا النهر يساعد على أسقاء ٢٠٠ ألف هكتار من أخصب البقاع وأكثرها استعداداً لزراعة قصب السكر والقطن على اختلاف أنواعه.

وقد بلغ عرض دجلة في هذا الموضع نحو ٣٨٠ متراً مكعباً وكمية ما يجري فيه من المياه تبلغ ١٢٠٠ متر مكعب في الثانية على انه في فصل الربيع يبلغ نحو ٤٠٠٠ متر مكعب ويظل يتناقص حتى يستقر في شهر كانون الأول والثاني على ٤٥٠ متراً مكعباً في الثانية وإذا دخل شهر شباط ابتدأ الفيض تدريجياً حتى يبلغ منتهاه في شهر آذار وأكثر ما رأيناه في طريقنا من البساتين والحقول والمزارع يسقى بالكروود والآلات الرافعة للمياه تحرك بالبخار أو بالبترو، وفقر الفلاح وغناه منوطان بقربه من المدينة بغداد وبعده عنها فكلما دنا منها كثر ماله وحسنت حاله وازدادت أرباحه لان أكثر نواتج بقاعه من بقول وفاكهة وإثمار تجد في أسواقها تجارة نافقة والأمر بالعكس مع

ما بنى بها الملوك والأكاسرة واثروا فيها من الآثار. . . وتسمى المدينة الشرقية العتيقة وفيها القصر الأبيض القديم. وتتصل به المدينة التي كانت الملوك تزل بها وفيها الإيوان ويعرف باسانير. . . فالظاهر من كلام الخطيب أن الإيوان كان في المدائن عاصمة دولة الفارسيين وهو الصحيح الثابت ويؤيده ما وجدناه من الأنقاض والخرائب التي تشير إلى وجود المدينة وقد نقب بعض الباحثين في الآثار القديمة فوجد هناك بعض النقوش والكتابات على الآجر المشوي اهتدى بواسطتها إلى حدود المدينة وعثر على بعض أنقاض سورها الذي ورد ذكره في مقدمة تاريخ بغداد للخطيب أيضاً حيث قال: وكان الإسكندر. . . يترها يعني المدائن. . . بوى فيها مدينة عظيمة وجعل عليها سوراً أثره باق إلى وقتنا هذا موجود الأثر وهي المدينة التي تسمى الروضة في جانب دجلة الشرقي.

والإيوان في موضع يبعد عن بغداد ست ساعات من طريق البر وعشرات ساعات من جهة النهر بينه وبين ساحل دجلة الأيسر مسافة ١٥ دقيقة وهو بناء ضخيم هائل يبلغ طوله نحو ٤٢ متراً في عرض ٢٥ متراً وارتفاعه يناهز ٣٠ متراً وعرض الباقي من العقد إلى أعلاه وثخنه ٨ طاباقات لو متران ونصف وهو قومي الشكل ويبلغ مقدار قوسه ١٤ متراً وعرض حائط الإيوان الذي عليه طرف العقد زهاء خمسة أمتار وعرض الباب الذي يكون مقابلاً لك إذا وقفت في وجه الإيوان ووجهك إلى الجنوب الغربي متران و ٢٠ سنتيمتراً وارتفاعه خمسة أمتار وهو معقود مقوس. وفي جانبي الجدار الذي فيه الباب المذكور من أعلاه روزنتان نافذتان إلى الوجه الآخر من الجدار يبلغ ارتفاع كل منهما مترين في عرض متر وارتفاع الجدار المار الذكر يناهز ١٨ متراً وفي حائط الإيوان الشرقي مما يلي وجهه باب طوله سبعة أمتار ونصف متر وفي عرض متر ٨٧ سنتيمتراً وقد شق عقده إلى أعلى الإيوان ويزعم أهل العراق أن الشق قد حدث

وهلة يوم ولادة النبي صلى الله عليه وسلم فتطير من ذلك كسرى ورسخ في ذهنه أن انقضاء حكم الفرس وزوال ملكهم قريب الوقوع، وفي شرقي الجدار المذكور جدار آخر قائم قد سقط أعلاه وتداعت بعض أركانه من طرفه الشرقي ولم يبق منه إلا ما يناهز طوله نحو ٣١ متراً في عرض سبعة أمتار في ارتفاع قرابة ٣٠ متراً وفي وجهه الذي هو تجاه الشمال الشرقي آثار نقوش ومشاك وأعمال هندسية في البناء بديعة الشكل حسنة الوضع وفي أعلاه تجاه الجنوب الغربي اثر عقد يدلنا على انه كان هناك إيوانان هناك إيوان آخر صغير غير هذا الكبير وقد هدم، وطوله من الأرض إلى اثر العقد قرابة ٨ أمتار، وفي وسط الجدار المذكور باب معقود طوله ٧ أمتار في عرض ٤ أمتار و ٢٠ سنتيمتراً وفي ارتفاع متر و ٨٠ سنتيمتراً وبناء الإيوان بالحصص والطاباق.

هذا ما يمكن أن يقال عن الإيوان في هذا العهد وأنت ترى انه لم يبق منه إلا انقاض بالية لولا وجودها لاندركت رسوم هذا الصرح الفخم بيد أن ما بقي منه كاف لإظهار عظمة الفرس القدماء وحسن ذوقهم وطول باعهم في الفنون الهندسية وهذا الصرح الشاهق لا يقل ضخامة وفخامة عما شيده اليونان والرومان في البلاد التي دانت لهم واعضوا أهلها بأسياهم وبلغت فيها حضارتهم أقصاها ومنتهاها. ولا جرم فالفرس أو لو تمدن زاهر ونسب عريق في الحضارة والمدينة، وقد وقف البحري الشاعر الشهير على أطلال المدائن ففاه بقصيدة هي أحسن وأعذبها وارقها قال بعد أن عاتب زمانه وشرح حالته:

حضرت رحلي المهموم فوج ... هت إلى ابيض المدائن عنسي

اتسلى عن الحظوظ وآمي ... نحل من آل ساسان درس

ذكرتنيهم الخطوب التوالي ... ولقد تذكر الخطوب وتسي

وهم خافضون في ظل عال ... مشرف يحسر العيون ويخسي

مغلق بابيه على جبل القب ... م ق إلى دارتي خلاط ومكس
حلل لم تكن كإطلال سعدي ... في قفار من البسابس ملس
ومساع لولا المحاباة مني ... لم تطقها مسعاة عنس وعبس
نقل الدهر عهدهن عن الجدة ... م حتى غدون أنضاء ليس
فكأن الجرماز من عدم الأ ... م نس وإخاله بنية رمس
لو تراه علمت أن الليالي ... جعلت فيه مأتماً بعد عرس
وهو ينيك عن عجائب قوم ... لا يشاب البيان فيهم بلبس
فاذا ما رأيت صورة انطا ... م كية ارتعت بين روم وفرس
والنايا موائل وانوشر ... م وان يزجي الصفوف تحت الدرفس
في اخضرار من اللباس على اص ... م فر يختال في صبيغة ورس
وعراك الرجال بين يديه ... في خفوف منهم وإغماض جرس
من مشيح يهوي بعامل رمح ... ومليح من السنان بترس
تصف العين أهم جد أحياء ... نهم لهم بينهم إشارة غرس
يغتلي فيهم ارتياي حتى ... تتقراهم يداي بلمس

إلى أن قال:

وكأن الإيوان من عجب الصن ... م عة جوب في جنب ارعن جلس
يتظنى من الكتابة أن يب ... م دو لعيني مصبح ومسي
مزعجاً بالفراق عن انس ألف ... عزاً ومرهقاً بتطليق عرس
عكست حظه الليالي وبات الم - م ... مشتري فيه وهو كوكب نحس
فهو بيدي تجليداً وعليه ... ككل من كلا كل الدهر مرسي
مشخر تعلو له شرفات ... رفعت في رؤوس رضوي وقلس

لابسات من البياض فما تبصر منها ... م إلا غلائل برش
 ليس يدري اصنع انس لجن ... سكنوه ام صنع جن لانس
 وكان اللقاء أول من أمس ... م ووشك الفراق أول أمس
 عمرت للسرور دهرًا فصارت ... للتعزي رباعهم والتأسي
 فلها أن أعينها بدموع ... مواقف على الصباية حبس

ذاك عندي وليست الدار داري ... باقتراب منها ولا الجنس جنسي
 غير نعي لاهلها عند اهلي ... غرسوا من ذكائها خير غرس
 أيدوا ملكنا وشدوا قواه ... بكماة تحت السنور همس

ولو أردنا أن تثبت كل ما جاء في وصف هذا البناء الشامخ من منظوم ومنثور لضاق
 بنا المقام واحتجنا إلى مجلد ضخم له تلو.
 بغداد=// إبراهيم حلمي العمر.

في ديار الغرب

قل سيروا في الأرض

ليس كالسياحة تجدد الحياة وتزيد الاختبار وتعلم وتهذب وتزيد في الاعتبار بحوادث
 الليل والنهار. وإني لا تمنى لكل من ساعدته الحال أن ينهض ليعتبر ويتعلم ويتسلى فان
 النفس في قرارها تصدأ كما يصدأ الحديد بالرطوبة فهي تحتاج للنور وللحرارة وإلا
 فتذبل كالزهرة.

قال وليم هازلت من مفكري الانكليز أن الوقت الذي أمضيته في السياحة الأجنبية
 مقطوع من عمرنا مفصول من حياتنا إلى وصله ولا وسيلة إلى إدماجه والمرء خارج
 وطنه رجل آخر غير الذي كان هنالك حتى أن المسافر ليودع نفسه فيمن يودع والله
 در القائل خرجت من موطني ومن نفسي فمن أراد أن ينسى الحزن والشجن فليذهب